نقـد :

د. حسن فتح الباب

ولكن ابناء البوسنة ليسوا عندهم بشرا من البشر ، ولا هم يستحقون ان يرتفعوا إلى مستوى الحيوان ، فللسياسات الغربية مصالحها الاستراتيجية ، وليس من بينها إنقاذ شعب مسالم لاذنب له إلا التشبث بارضه والدفاع عن دينه . وليس فى البوسنة منابع للبترول حتى يحميها ورثة الحضارة الأوربية ويضعوها فى قائمة شواغلهم ومسئوليتهم عن إقامة نظام دولى جديد . إن دم طفلة بوسنية لايساوى فى حساباتهم قلامة ظفر طفل من العالم الأول ، وهتك عرض ام او فتاة فى الطريق العام او بين الخرائب وفى المعامل وورشات النجارة امر لايعنى اصحاب الرسالة العليا لتمدين البشرية مادام الاغتصاب بعيدا عن مضاجعهم ، فهم لايحركون ساكنا لدرئه ، بل يتركون الوحوش البشرية تلغ فى مستنقعات الدم الطاهر ، وتقص اجنحة الطيور والفراشات الوادعة ، وتلتذ برؤية الأعراض المثلومة والأزهار الذابلة الممتقعة الوجوه وهى تغادر وطنها فرارا من المذابح .

لقد اذاعت وكالات الأنباء فى اواخر مارس ١٩٩٣ على اسماع العالم كله ان وحشا آدميا من الميليشيات الصليبية - التى يتزعمها السفاح رادوفان كالديتش متواطئا مع نظيره سلوبودان ميلوسفيتش رئيس جمهورية الصرب - قد اعترف خلال محاكمة جرت ذرا للرماد فى العيون وتحت ضغط قطاع من الراى العام الغربى ، انه قد تدرب على ذبح الخنازير قبل ان يقوم باغتصاب سيدات مسلمات وقتل إحدى عشرة منهن . كما اعترف شيطان صربى صغير يحمل اسم يورسيلاف بعد اسره من القوات المسلحة البوسنية انه قتل وحده ٢١ مدنيا معظمهم من النساء والأطفال ، واغتصب ثمانى نساء وقتلهن وقام بارتكاب مئات السرقات . وليست هذه مجرد جرائم فردية بل هى تندرج فى إطار عمليات قذرة منظمة ترمى إلى الإبادة الجماعية تنفيذا لسياسة التطهير العرقى التى اعلنها صراحة رئيس الصرب ، فالهدف هو استئصال شافة المسلمين بقتلهم ، او إجبارهم على التخلى عن وطنهم ، حتى لايلوثوا اوربا النقية الأعراق . وتلك سياسة اشد فظاعة مما ارتكبه هتلر وساسة جنوب افريقيا بل المجرمون الصهاينة فى فلسطين ، وابشع مما ارتكبه التتار والمغول من مذابح فى عصور البربرية الأولى حين كان العرف السائد يجيز للمنتصر فى الحرب استباحة المدن المفتوحة .

ومع ذلك ، فإن الغربيين - فيما يزعمون - اكرم وارحم ، اهل الأرض جميعا منذ انبثق اول شعاع للشفقة فى سماء التاريخ ، وذلك على خلاف مع الأفكار البلهاء فى نظرهم مما يدور فى خلد المتشككين فى سمو الحضارة الغربية ونبلها !! اليسوا ينفقون من ميزانياتهم الفقيرة على تجهيز طائرات الاغاثة لإلقاء الخبز والزبد على المحاصرين فى المدن الواقعة شرقى البوسنة ؟ فإذا صرخ هؤلاء : إن المؤونة يسقط كثير منها على الصربيين القتلة ، فلم لاتهبط هذه السفن الطائرة العملاقة قليلا حتى تضمن تحقيق اهدافها ؟ لم لاتستعمل القوة كى تقتحم الشاحنات التى تنقل الأدوية والأغذية المتاريس التى اقامها اولئك القتلة حول المدن البوسنية ؟ ولكن الذين يصرخون يعلمون ان نداءاتهم سوف تذهب هباء واصواتهم ترتد اصداؤها ضارعة مكلومة . فلأن يموت جوعا آلاف المسلمين اهون من مقتل جندى امريكى او اوربى واحد بايدى الصرب بعيدا عن بلاده . اما شعب العراق فإن الحمائم الامريكية والنعام المسالم تتحول إلى صقور وآساد عليه بدعوى حماية الأكراد شمالا والشيعة جنوبا . والله يعلم انهم لكاذبون . إنما يضمرون تنفيذ مخطط يستهدف تقسيم دولة العراق لحسابهم وحساب ربيبتهم إسرائيل ، مستغلين الخطيئة التى ارتكبها سفاح العراق باحتلال الكويت سواء اكان ذلك بإيحاء منهم ام باطماع شيطانية .

إنهم يقراون صحفهم التى تحمل انباء كوارث الدول الضعيفة بعيون كليلة بل بعيون جوفاء كالبئر المعتم ، عيون ميتة وضمائر ملساء كجلد الأفعى ، فى ظل انظمة تسود فيها حضارة الغابة الجديدة التى لاتقبل باقل من الهيمنة المطلقة للسيد الوحيد فى للعالم . ففى فلسطين تمارس إسرائيل يوميا ، منذ غرس الغرب خنجرها المسموم فى صدر العرب ، كافة اشكال القمع والإرهاب ، وآخرها إبعاد اكثر من اربعمائة مواطن فلسطينى من بلادهم فى سابقة خطيرة لم تعرفها حتى الآن اعتى نظم الاستعمار الاستيطانى ، إذ يُدفع بهم مقيدى الأيدى معصوبى الأعين فى الشاحنات الاسرائيلية المصفحة إلى العراء لمجرد انهم يدافعون عن ارضهم . ويقتل كل يوم اطفال ونساء ورجال لمجرد انهم يريدون الحياة آمنين فى ديارهم .

وفى البوسنة ترتكب جرائم لاتقل شناعة تحت بصر الصاعدين إلى الفضاء لينقلوا إلى عالمه مثلهم الإنسانية السامية ، جرائم وصفها المفكر روجيه جارودى(*) بانها تشكل تلا صغيرا من جماجم اعدائه ، وان هذا التل تم صنعه فى عشرات السنين التى قاد فيها هذا الطاغية المتجبر جيوشه . لقد اصبح جنكيز خان طفلا هاويا بجوار المحترفين من ابناء الحضارة الغربية . فهم يتقدمون - كما قال جارودى - إلى الخلف . وهم لم ينكروا ذلك فى ساعة يقظة للضمير ، فالمثل الأوربى يقول : (الإنسان ذئب لإنسان

آخر)، ولكن حاشا ان يكون هذا الآخر من الأوروبيين أو الأمريكيين، فهم آلهة، ولا ينبغى للآلهة المقدسة أن تمس. فإذا كان لامفر من الصراع الدموى فليكن بعيدا عن دولهم. إنها شرعة الرجل الأبيض، ميعوث العناية السماوية إلى الأرض، مازالت سارية فى القرن الذى بلغت فيه الإنسانية كما يقولون رشدها وتكاد ان تحقق فيه حلم الفلاسفة والمصلحين بقيام المدينة الفاضلة.

إنها ماساة البوسنة والهرسك تلقى بظالها الكئيب على نفس الدكتور انس داود الشاعر الراحل الذى عاش حتى النهاية مشبوب الحس مهموماً بعذابات الأبرياء، فإذا هو يرسل نفثة قلب كظيم باح بعد ان ضاق به الصدر وعز الصبر. وتبدا القصيدة فى صيغة مناجاة حانية آسية لرفيقة الشاعر يسالها مستنكرا:

قولى: من سمانا بشرا؟
من اعطانا نور العينين
وإحساسا ماساويا
إن ابصرنا عصفورا مذعورا
او غصنا فى كف الريح العاصف
يذوى منكسرا؟
من علمنا ان نطلق من حنجرة الأحلام
غناء مبتسما؟
ان نرقص فى اعياد الميلاد
وان نملأ كل مدائننا الموبوءة
فى ذكرى اجمل طاقة نور زهرا؟
من علمنا ان نرقب فى منتصف الليلة قمرا.
وجناح الظلمة ممتد
وفؤاد العالم امسى حجرا؟

هكذا يوظف الشاعر ارق انغام الرومانسية ليصور التناقض بين الاحساس الفطرى بجمال الحياة وبهجة الحب والحلم والغناء وإشراقة الأمل فى الغد مهما تكاثفت الظلمات، وبين واقع عصرنا المعادى لكل ما هو جميل ونبيل فى هذه الحياة. ما بال إنسان هذا العصر المتحفز ياسى لمشهد العصفور الكسير الجناح فى يد الصياد، والغصن الذابل فى العاصفة الخريفية، ويردد ترانيم عيد ميلاد المسيح نبى السلام والتسامح، ويرقص طربا فى حانات الليل، ثم لايرفع صوته باللعنة على الاسرائيليين والصرب وهم يروعون الأطفال وينصبون لهم باعصاب باردة فخاخ الموت؟ لماذا لايمد يدا لإنقاذ النساء العفيفات ويضرب على ايدى الجناة؟:

«مبتعد» عن بيتك
وانا مرتجف تحت غطائى
فى قلب سريرى
واراك على «التلفاز» تقاوم مضطرا
ان تسقط فى مهوى الريح
فيسقط وطن (قسمت بان يبقى حرا
يسقط طفل فى الصومال
ونهد يتعرى فى البوسنة
نهر النفط يفيض..
بلا ماء انت.. بلا زاد

يتحول هنا الشاعر من الخطاب الشاجى لمهلمته إلى خطاب احد المبعدين الفلسطينيين. ولا يعفى نفسه من المسئولية إذ تقع الجريمة بالسلب. فهو يشعر بوخز الضمير ان يرى نفسه مستمتعا بالدفء فى فراشه رغم انخفاض درجة الحرارة، فى حين ينقل إليه التلفاز صور المبعدين الفلسطينيين يقاومون الموت فى زمهرير الشتاء القاسى الذى يقتلع خيامهم ويقلب قدور زادهم القليل الذى لايكاد يسد الرمق. ولكنهم رجال آمنوا بوطنهم فهم لايستسلمون، بل ترفض القلة القليلة التى سمحت إسرائيل بعودتهم إلى ديارهم ان يتركوا إخوانهم. وتحمل الإذاعة المرئية انباء فاجعة اخرى، فها هم الصوماليون يتحولون إلى اشباح وعظام نخرة بعد ان اكلتهم المجاعة. وفى البوسنة تشتد الماساة حتى تجل عن الوصف، وإذ يتساقط الصغار والشيوخ تحت قصف المدافع وينتهك الفجار اعراض الفتيات. ومثل جمرات الرماد يصب

الشاعر كلماته الغاضبة الثائرة على اصحاب النفط المتدفق لتصب

عائداته فى خزائن اوليائهم المنعمين، وابناء دينهم فى فلسطين وفى البوسنة وفى الصومال لايجدون قطرة ماء نقية يروون بها غلتهم، ولا لقمة نظيفة يتبلغون بها ليتقوا الموت جوعا:

نهر الدولارات يفيض
ضمير العالم يامر ان تبقى
مرتعشا فى ادغال الظلمة والريح
شبحا لاتملك امرا
لاتملك حتى كسرة خبز
قطرة ماء
هل يلقنات ذراعك
هل تستجدى المطرا؟

ويتوقف انس داود مرة اخرى عند الطفل الصومالى الذى تحول إلى شبح - وكان مرجوا فى عين امه ان يغدو فتى اسمر كالرمح يكفل لها زاد الجسم المحروم وزاد الكرامة والتعفف على السؤال - فيسائله وقد برح به الغضب الماساوى هل تلقنات ذراعك؟ لكن الطفل بات عودا من الهشيم لاتكاد تحمله قدماه الواهنتان، وبات الراس جمجمة ميت إلا من عينين كئيبتين بالبتهما تقويان على سمل عيون المترفين السفهاء الصم البكم العمى عن الحقيقة الفاجعة. بات الطفل عودا فلم يعد يقوى حتى على اكل ذراعه ليقتات بها وما اشد الصورة وقعا، ففى نكبة الجفاف وغضبة الطبيعة وشح الأقربين والأبعدين الراتعين فى حمى الضمائر الميتة، لا وقت لدى القادرين كى يسكبوا الدموع او يمدوا يد الغوث، قد الهاهم التكاثر فى المال والبنين والمناصب المستبدة والصفقات المشبوهة المعقودة لاجتلاب الأسلحة الفتاكة التى لم تُشهر يوما على العدو الحقيقى، وإنما حُشدت لدعم العروش حتى لاتتهرا تحت عجلة الزمن الزاحف الآتى لاريب.

ترفع العجوز يديها إلى السماء ضارعة، يجار الصبى الفلسطينى بالصرخات ولايجد غير الحجارة التى بقيت من انقاض بيته الذى هدمه الإسرائيليون سلاحا يرميهم به وإن كسروا عظامه كلما ظفروا به مقتا وتشفيا او احرقوه او دفنوه حيا، وهو يستغيث بذوى القربى سلالة اهل النخوة الذاهبين:

اخى انت من لحمى، دماؤك من دمى
فإن كنت ماكولا فكن خير آكل
وإلا فادركنى ولما امزق

وتنويعا على هذا اللحن الذى رجعه شاعر عربى قديم وهو يهيب بابناء عشيرته ان يهبوا لإنقاذه من جور ظالميه، لعل ضمائرهم ان تصحوا قبل ان يصبحوا شهود قتله وهم احياء يسومون سرح اللهو حين يغدون وحين يروحون، يئن شاعرنا مرة اخرى تحت وطاة الشعور بالذنب، فليست الماساة هى جرائم العدو او غضبة الطبيعة وحدهما، ولكنها قسوة الأهل التى تبلغ درجة الخيانة. وقديما قال طرفة بن العبد:

وظلم ذوى القربى اشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

يتفطر قلب شاعرنا حزنا على طفله الذى وأده بيده كما بكى عمر فى الجاهلية وهو يحثو التراب على جبين وليدته، وشعورا بالعار لأنه عاجز عن نجدة ضعفاء من اهله، متورط بجريمة الصمت والماساة تبدا على عينه ولاتنتهى. وهو قابع - مثل كل المثقفين وكل الحكام العرب يتابع اخبارها من فراشه الدافىء:

ماساتك انك.. انت انا
انى حين قتلت فى نفسى
اعطيتك تابوتا ومنحتك للريح
اختر ما شئت:
ان ترقد فى قلب النسيان
وعيناى تراك وديعا منهزما
او تسقط فى قلب الظلمة
نسرا منتحرا

ويأتى الختام - عودا على بدء - اسئلة حيرى لهفى عن علة وجودنا نحن البشر عامة والعرب خاصة فى هذه الدنيا إذا لم تنهض لنزيل العار الذى يلطخ جباهنا، ونضع حدا للدماء التى تتفجر من اجساد الفلسطينيين والبوسنويين وندرك انها فى اعناقنا. حتى الشعر الذى كان يزهو به الشاعر والذى رفع راس العرب وكان ديوانهم اصبح لغوا ولعبا فى نظره مادام لاينصر مظلوما ولا يقهر ظالما - وهذه الخاطرة طالما رددها الشعراء منذ ابى تمام - فى قصيدته التى نظمها من وحى انتصار الخليفة المعتصم على الروم فى الحرب التى خاضها تلبية لاستغاثة امراة عربية خدش حياءها جندى من الروم: «وامعتصماه» حتى اليوم. ولكن انس داوود يعيد إنتاجها فى ثوب جديد:

من علمنا
فى هذا الزمن اللا إنسانى
ان نلهو بالأوراق
وان نكتب شعرا؟
من خلق العالم هذا الحجرى القلب
لماذا لم يخلقنا حجرا؟

واخيرا فإن ميزة هذه القصيدة انها تحول نثر الحياة اليومية إلى لغة شعرية مكثفة منسوجة من واقع العصر ومن بعض التقنيات الأسلوبية الجمالية التى طور بها الشعر الحر القصيدة العربية القديمة، وهى بذلك إضافة لها قيمتها إلى الشعر الواقعى الماساوى وإن كانت قد افادت من الرفرفة الرومانسية لغة وصورة، وإيقاعها العروضى مناسب للجو الذى تصوره، مع براعة فى توظيف القافية الواحدة فى نهاية كل مقطع، وهى قافية تحدث رنينا ذا صدى يشى بوقع الماساة كما وظف الشاعر تقنية التكرار الذى يدعم المعنى، وصيغتى الخطاب والاستفهام المؤكدتين والمعمقتين للرؤية. ولو تفاضينا عن عبارة (فى هذا الزمن اللاانسانى) الشديدة النثرية وعدداها من الهفوات التى تُخل ببنية النص، لما كنا مبالغين إذا قيمنا هذه القصيدة المنسمة بالرهافة والشفافة تستعصى على النسيان زمنا طويلا على خلاف مع كثير من القصائد التى اوحت بها ماساة فلسطين والبوسنة والصومال.

هامش:

(*) فى حوار مع الأستاذ احمد بهجت نشر بصحيفة الأهرام فى ٣١ مارس ١٩٩٣